القصص الديني

الحلقة الأولى

قصص الأنبياء

موسى والرجل الصالح

عبد الحميد جودة السحار

١٣

القصص الديني
الحلقة الأولى
قصص الأنبياء

موسى والرجل الصالح

تأليف
عبد الحميد جودة السحار

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

١

تفرَّقَ بنو إسرائيلَ في الصَّحراء ، بسببِ عِصيانهم لأوامِرِ اللّه ، وتاهُوا في الرِّمال ، فلم يَعُدْ أحدٌ منهم يَعرِفُ مكانَ أخيه .

أمَّا موسى فسارَ ومَعهُ فتىً من قومِه ، كانَ يتابِعُه دائِما ، ويُساعِدُه في قضاءِ حوائِجِه ، وتَحضيرِ طعامِه وشرابِه .

وكان اللّه قد وعَدَ موسى أنْ يَجْمَعه برجُلٍ صالحٍ عالمٍ ، يُعلِّمُه أشياءَ كثيرةً لا يَعلَمُها ، وأخبَرَه أنّه سيَلقَى هذا الرجلَ عندَ مجمَع البحرَين ، أى في الجِهةِ التى يلتَقِي فيها البحرُ الأحمر بالتُّرعة الخارجة من فرع النيل .

فقال موسى لفتاه : لا بدَّ أن أسير وأسيرَ حتى

أصِلَ إلى مَجْمَعِ البحرَين . حتى ولو ظَلَلْتُ أسيرُ أعوامًا طويلة .

ثم سارا ، وسارا ، وسارا .

وكان الغُلامُ قد اصطادَ حُوتًا من السمك ، ليصنعَ منه غداءً لموسى ولنفسِه ، فلمَّا وصلا إلى نُقطَةِ التقاء البَحرَين ، وجدا هناكَ صخرةً كبيرة ، فَجَلَسا عليها يستريحان ، ووضَعَ الفتى حُوتَه بجانِبِه ونَسِيَه ، فتسَرَّبَ إلى البَحرِ ودبَّت فيه الرُّوح وغاص .

وانتظَرَ موسى فلم يجِدْ ذلك الرجلَ الصالحَ العالِم ، فقامَ يمشي ومَعَه فتاه ، يبحثُ عنه هنا وهناك ، حتى ابتعَدا عن مَجْمَعِ البحرين .

ولمَّا أحَسَّ موسى الجوعَ والتعب ، جلس يستريح .

« قال موسى لفتاه : آتِنا غَداءَنا ، لقَد لَقِينا من سَفَرِنا هذا نَصَبا » .

عندئذ تذكَّرَ الفتى أنّه نَسِيَ الحُوتَ عِندَ الصخْرة .

« قال : أرأيتَ إذ أَوَيْنا إلى الصَّخْرة ؟ فإني نَسيتُ الحُوتَ . وما أنْسانِيهُ إلا الشيطانُ أن أذْكُرَه . واتَّخَذَ سبيلَه في البحر عَجَبا .. » .

ووقف الفتى خَجِلا .

أمَّا موسى فقال في نفسِه : لا بُدَّ أنَّ اللّهَ يُريدُ أن نرجِعَ إلى مَجْمَعِ البحرينِ ، لأَلْقَى ذلك الرجُلَ الصَّالِح . فَسُرَّ في نفسِه ، وطمأَنَ الفتَى ! قال : « ذلكَ ما كُنَّا نَبْغِ » .

وعادا إلى مجمع البحرين ، وعندَ الصَّخْرَةِ نظَرَا فوَجَدا ذلكَ الرَّجُلَ الصَّالِح الطَّيِّب القلب ، الرَّحيم العالِم ، الذى وَعَدَ اللّه موسَى بِلقائِه .

« قال له موسى : هل أَتَّبِعُكَ على أنْ تُعَلِّمَنى مما عُلِّمْتَ رُشْدا ؟ »

« قال : إنَّك لنْ تستَطيعَ معِيَ صَبْرا ، وكيف تَصْبِرُ على ما لَمْ تُحِطْ به خُبْرا ؟ » .

« قال : ستجدُني إن شاءَ اللّه صابِرًا ولا أعصي لكَ أمرا » .

قال الرجُلُ الصالِح : إذا كُنتَ ستَتَّبِعُني فلا تسألْني عن أيِّ شيءٍ تراني أعمَلُه إلاَّ إذا حَدَّثْتُك أنا عنه .

٢

سارَ الرَّجل الصالِح وموسَى معه ، حتى وصَلا إلى مكانٍ تَرْسُو فيه المراكِب ، فرَكِبَ في سفِينةٍ منها ، ورَكِبَ موسى معه .

وبينما السَّفينةُ في وسَطِ الماء ، إذْ نظَرَ موسى ، فوَجَدَ الرجلَ الصَّالِحَ قد أخَذَ مِسمارًا ومِطْرَقة ، وأخذَ يَخرِقُ السفينة ، حتى أحدَثَ فيها ثُقْبا .

فَزِعَ موسَى وخافَ على المركب أن تَغرق ، وتوجَّهَ إلى الرجلِ يسألُه في حَيرة : « قال : أخرَقْتَها لِتُغرِقَ أهلَها ؟ » لقد فَعَلْتَ فعلا رَدِيئًا فظيعا !

لم يَغضَبِ الرجلُ ولم يَكشر ، ولكنَّه قال :

« ألم أقلْ : إنَّكَ لنْ تَستَطيعَ مَعِيَ صبرا ؟ »

عندَ ذلك تَذَكَّر موسى أنَّ الرجلَ شَرَطَ عليه ألاَّ يتكلَّم عن شيءٍ مما يراهُ أو يَسْمَعُه مما يعمَله الرجل ، إلا إذا حدَّثَه هو عنه . فَخَجِلَ واستَحيا .

« قال : لا تُؤاخِذني بما نَسيت » .

ووعَدَه مرةً أُخرَى أن يسكُتَ ، فلا يَتكَلَّمَ ولا يسألَ أبَدا .

ونَزَلا من السَّفينَة ، وتركاها تَسير ، وسارا في طريقِهِما .

وبينَما هما يسيرانِ إذْ وجَدَا غُلامًا صغيرًا يلعَب ،

فأَمْسَكَ به الشَّيخُ وقَتَلَه .

رأى موسى هذا الفِعل ، فغَضِبَ غَضَبًا شديدا ، كيف يقتُلُ الرجلُ هذا الطِّفلَ البرىء ، الذى لم يفعَلْ ذنْبا ؟ ونَسِيَ الشَّرط ، ولم يَعُدْ يستَطيعُ السكوت ، فصرخَ في الرجل :

« قال : أقَتَلْتَ نَفْسًا زكِيَّةً بغَيرِ نفس ؟ لقدْ جئْتَ شَيئًا نُكْرا » . أى لقد عمِلتَ ذنبا عظيما ، حينَ قَتلْتَ هذه النَّفسَ الطاهِرةَ التى لم تَقتُلْ أحدا .

فلم يغضَب الرجل ، ولم يكشِّرْ ، ولكنه قال :

« ألم أَقُلْ لكَ : إنَّكَ لنْ تَستَطيعَ معِيَ صَبرا ؟ » .

عند ذلك خجِلَ موسى خجلا عظيما ، وعَزَمَ على ألاَّ يتكلَّمَ بعدَ الآن ، وإذا تكلَّمَ فإنَّ الرجلَ يكون معذورا إذا فارَقَه ، ولم يُصاحِبْه ، قال :« إنْ سأَلْتُكَ عن شيء بعدَها فلا تُصاحِبْنى ، قدْ بلَغْتَ من لَدُنِّى

عُذْرا » .

وسارا فى طريقهما .

وظلاَّ سائِرَين حتى دَخَلا قَرْية ، ولم يكن معهُما طعامٌ ولا نُقود ، وقد جاعَ موسى وجاعَ الفَتى الذى معه . فتقَدَّمَ الرجلُ ومعه موسى إلى أهلِ القريةِ يَطلُبان طعاما ، ولكن أحدًا لم يُرِدْ أن يُعْطِيَهُما شيئا ، واشتدَّ عليهما الجُوع ، وكلَّما سألا واحِدًا من أهلِ هذِه القريةِ قال : نحنُ لا نُعطِى طعامَنا بلا ثَمَن . فاذهَبا فَلَن نُعطِيَكُما .

وبينما هو يسيران فى المدينة إذْ وجَدا جِدارًا مائِلا ، يريدُ أن يَنْهَدِم ، فقَرُبَ الرجلُ من الحائط ، وكوَّمَ الترابَ حولَه ، وجاءَ بالماء وعَجَنَه حتى صارَ طِينا . وأخذَ يُرَمِّمُ هذَا الحائِطَ ويُقَوِّيه ، وموسى يُساعِدُه وهو ساكِت ، حتى انتهى من عملِه ،

وأصبحَ الجدارُ متينًا لا يسقُط .

وعندَما أرادَ الرجُلُ أن ينصرِفَ قالَ موسَى : الآنَ وقَدْ رَمَّمْتَ هذا الجدارَ فى تلك القرية ، التى لا نجِدُ فيها طعامًا ولا نقودا .. ألا تستطيعُ أن تطلُبَ أجرًا على هذا العمل ! إنَّك لو شئتَ لاتَّخَذْتَ عليه أجرا .

ونظرَ الرجلُ إليه وهو يبتسم ، « قال : هذا فِراقُ بينى وبينِك ، سَأُنَبِّئُكَ بتأويلِ ما لم تستَطِع عليه صبْرا » أى سأُخبِرُكَ عن سرِّ هذه الأشياء التى لم تتمكَّن من الصَّبر عليها .

٣

جلسَ الرجلُ كالمُعلِّم ، وجلسَ موسى أمامَه كالتلميذ ، وأخذَ الرجلُ يشرحُ سرَّ هذه الأعمالِ الثلاثةِ العجيبة ، التى قام بها وموسى لا يعرِفُها .

قال : أتذكُرُ تلكَ السَّفينة التى خَرَقتُها ونحنُ فى وسطِ البحر ؟

قال موسى : نعم ، وقد كِدْتَ تُغرِقُنا ، ولا بُدَّ أنها غَرِقَتْ فى الطريق .

قال : هذه السفينة يَملِكُها جماعةٌ من المساكين ، يعمَلونَ فى البحر ، ويرتَزِقُونَ منها ، وكان فى طريقِهم مَلِكٌ ظالِمٌ يأخذُ كل سفينةٍ صالِحةٍ غَصْبا ، وقد أعلَمَنِى ربِّى أنَّ هؤلاءِ المساكين سيظَلُّونَ سائِرينَ حتى يصِلُوا إلى أرضِ ذلكَ الملك الظالِم ، الذى يأخـ السُّفُنَ السَّليمةَ بالغَصب ، فأرَدْتُ أن أعيبها بهـ الخَرْق الذى خرقْتُهُ حتى إذا رآها المَلِكُ الظالم مخرُو لم يأخذْها ، وتَركها لهم لِيَعيشوا منها .

قال موسى : معكَ حقّ . اعذُرنى إنّنى لم أكـ أعرِفُ ما تعرِفُه أنت ، مما علَّمَك ربُّك ، ولكن ه

ذنبُ هذا الغلامِ البرىء الذى قتلْته ؟

قال الرجل : لقد أعْلَمَنى ربِّى أنَّ والِدَىْ هذا الغُلامِ طَيِّبان ، أمَّا هو فولَدٌ شِرِّير ، وإذا كبِرَ كان كافِرا ، وسبَّبَ لوالِدَيه الطَّيِّبَين مصائب كبيرة ، بسببِ كُفرِه وظُلْمِه ؛ وقَدْ أرادَ اللّه أن يموتَ هذا الغلام الشرير ، ليرزُقَ والِدَيه خيرًا منه وأصلَح ، ولهذا قتَلْتُه كما أرادَ ربِّى .

قال موسى : معَكَ حقّ ، اعذُرنى فإنّنى لم أكُن أعرفُ مما تعرفُه أنت ، مما عَلَّمَك ربُّكَ .. ولكن لماذا تركْتَنا بالجُوعِ ولم تأخُذْ أجرًا على الجدار الذى أقَمْتَه ورَمَّمْتَه ، فى تلك البلْدَة البخيلة ، التى لم تُطعِمنا ونحنُ جِياع ؟

قال الرجل : « أمَّا الجِدارُ فكان لغُلامَين يتيمَين فى المدينة ، وكانَ تحته كنز لهما ، وكان أبوهُما صالِحا ،

فأرادَ ربُّكَ أن يبلُغَا أشُدَّهُما ، ويستَخْرِجا كنزَهُما » ولو أنّنى تركتُ الجدار يتهدَّم ، لَظَهَرَ هذا الكنزُ تحته، ونَهبَه أهلُ القَرية من الغلامَين الصغيرين ، اللَّذين لا يقدِران على حماية مالِهما ، أمَّا الآن فَسَيبقَى الكَنزُ تحتَ الحائِط حتى إذا كبِر الغلامان ، وصارا شابَّين قويَّين ، فإنّما سيُخرِجانِ الكَنز ، وينتفعان به .

وهكذا أرادَ اللّه ، وما فَعَلتُ شيئا مما فعلته إلا بأمرِ اللّه . وهذا تفسيرُ تلكَ الأعمال التى لم تستطِع أن تصبِر عليها يا موسى .

٤

رفعَ موسى وجهَه إلى السَّماءِ ، لِيشكُرَ اللّه على نِعمَتِه ، بلقاءِ هذا الرجل الصالح الذى علَّمه أشياءَ

كثيرةً لم يكــنْ يعلَمُهــا : علَّمَــه كيــفَ يصــبِرُ ولا يغضَب ، ولا يلومُ النّاس على الأشياءِ التــى لا يعــرِفُ سِرَّها ، بل يســألُ أوَّلا ليعْـرف لمــاذا صنعُوهــا ، فقــد يكونُ لهم عُذرٌ فيها ، وربَّما كانت نيَّتهــم حَسَنةً ولا يَقصِدونَ بها شرًّا .

وعَلَّمَه أنَّ الإنسانَ لا يَجُوزُ أن يغْتَرَّ بنفسِــه ، فيَظُــنَّ أنّه يعرِفُ كلَّ شــىء ، وأنــه لا يُوجَـدُ مَـن هـو أعْلَـمُ منه ، ومن يعرِفُ أكثَرَ مما يعرِف ، وأنّه يجبُ عليــه أن يسأَلَ ليتعَلَّم ، لأنَّ هناكَ مَن هو أعْلَمُ منه .

وعَلَّمَه أنَ الإنســانَ لا يعـرِفُ أشـياء كثـيرة ، وأن اللّـه وحْـدَه هـو الـذى يعلـمُ جميـعَ الأشــياء وجميــعَ الأخبار ، وأنَّ اللّه يصنَعُ للناسِ أشياءَ كثيرة تُفِيدُهم ، ولكنهم هم قد يَجهَلُونَ لماذا يصنَعُها اللّه لهم ، لأنهــم لا يعلَمونَ سِرَّ هذه الأشياء . وقد يظُنُّونَ أنّها أعمــالٌ

ضارَّة ، ولكنّهــا فــى الحقيقـة تكــونُ نافِعَة : كَخَـرْقِ السَّفينةِ وقَتْلِ الغُلامِ الشِّرِّير .

وعَلَّمَه أنَّ الإنسانَ يجبُ أن يعمَلَ الخَيرَ حتّى من غيرِ أجرٍ عليه ؛ لأنَّ هذا الخَيرَ يُفيدُ بَعضًــا آخَـرَ من الناسِ الطَّيبين ، كما صنَعَ الرجلُ الصالِحُ فــى تَرميـم الجِدارِ الذى كان يُريدُ أن ينقَضّ .

... ثم نظَرَ موســى إلى جانِبه ، فلـمْ يَجِـدْ لـلرَّجلِ الصالِحِ أثرا ، أينَ ذهبَ ؟ كيف اختَفى ؟ عِلْمُ ذلــك عندَ اللّه ، ولا يعلَمُ أحَدٌ إلا اللّه .